

الخطاب النقدي الجزائري أولاً: الدكتور أبو القاسم سعد الله ونقده للشعر الجزائري

بقلم: شريط أحمد شريط*

تلخيص

تتناول هذه الدراسة تجربة الدكتور أبو القاسم سعد الله النقدية، وفهمه للشعر الجزائري

الحديث. وتركز التحليل خصوصاً على تحليل قضيتين أساسيتين:

عاجت في القضية الأولى تصميمه للشعر الجزائري والذي بدأه من فترة نهاية القرن الماضي إلى مرحلة حرب التحرير الوطنية. وتناولت في القضية الثانية نقده للشاعر محمد العيد آل خليفة. وقد كلل البحث بخلاصة ركزت فيها أهم النتائج التي بلغت إليها.

أولاً: تصميم الشعر الجزائري الحديث

لا أخال الباحث يكون مبالغاً، إن ذهب إلى القول بأن الدكتور أبو القاسم سعد الله يعد أهم كاتب جزائري يستنفر كل قواد المادية والمعنوية أثناء سنوات الحرب التحريرية لتعريف الرأي العام المشرقي، وخصوصاً فيثاته المثقفة بوضع الأدب الجزائري، وأهم المراحل التي قطعها، وأبرز المجالات التقنية التي بلغها. ولعله كان يهدف من وراء هذا الجهد الفكري الشاق والمضني - حيث لم تكن آنذاك سبل البحث ميسرة، بسبب صعوبة جمع الأعمال الأدبية وإصدارها في مجموعات قصصية، أو دواوين شعرية - إلى تحقيق الغايات التالية :

الرد بالدليل العلمي على القائلين بغياب النص الابداعي المكتوب باللغة العربية من الساحة الثقافية في الجزائر. وأن اللغة العربية كادت تندثر من الواقع الجزائري، وأن الشعب الجزائري أصبح فرنسي اللسان كما يهدف أيضاً إلى إثبات الهوية الوطنية الجزائرية في بعدها الحضاري العربي الاسلامي.

ويبدو أن إيمانه العميق بالصلة الروحية للجزائر بهذه الأبعاد جعله يتخذ موقفا صريحا من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يختلف عن مواقف العديد من الأدباء الجزائريين ممن يؤمنون بحياد اللغة ويعتبرونها وسيلة تخاطب واتصال، ويتجلى موقفه الصريح من هذه الاشكالية التي يتصاعد النقاش حولها مرحلة بعد مرحلة، وهي لا تزال تثير الكثير من الجدل بين المثقفين الجزائريين إلى الآن (3). فهو يعرف الإنتاج الأدبي الجزائري بقوله « بأنه الانتاج النثري والشعري الفني الذي كتبه الجزائريون بلغتهم القومية، وعلى هذا الاساس فإن كل أدب انتسب إلى الجزائر دون أن يتوفر له على هذا الشرط، يعتبر شاذاً غريباً، أو مولوداً غير طبيعي،

تقديم:

يعد الدكتور أبو القاسم سعد الله حالياً من أبرز المؤرخين الجزائريين خصوصاً في حقل تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، كما يعد أيضاً من أهم كتاب ونقاد الجزائر خلال سنوات الخمسينات والستينات من هذا القرن، فهو من أوائل الشعراء الجزائريين الذين أدخلوا تجربة الشعر الحر إلى الأدب الجزائري رغم صعوبة الاتصالات الثقافية والأدبية بين الجزائر وبقية البلدان العربية أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1962م)، وهو أيضاً من أبرز النقاد الجزائريين ممن أسهموا خلال سنوات الحرب التحريرية الكبرى (1954-1962م) في تعريف مثقفي الشرق العربي، وأدبائه بوضع الادب الجزائري الحديث، وإمكاناته الادبية سواء في مجال الشعر أو مجال النثر، كان المعبر عنه باللغة الوطنية العربية، أو بلغة المحتل الفرنسية، وقد كانت مجلة الاداب التي يصدرها الأديب العربي الكبير الأستاذ الدكتور سهيل ادريس من أبرز المجالات العربية التي فتحت صفحاتها لاحتضان مقالات ودراسات الدكتور أبي القاسم سعد الله (1) وغيره من الأدباء العرب الذين دافعوا عن القضية الجزائرية، وناضلوا بأقلامهم وكتاباتهم الابداعية من أجل استقلال الجزائر، واستعادة الشعب الجزائري حريته وهويته السلويتين.

ولقد آثرت أن أتحدث بهذه المناسبة التكريمية على موضوع « الدكتور أبو القاسم سعد الله ونقده للشعر الجزائري، على أنني سأقصر كلامي هنا على قضيتين نقديتين بسبب ضيق المقام، وسأعود إلى بقية القضايا النقدية الأخرى في وقت لاحق، أما القضيتان اللتان آثرت الحديث عنهما فهما :

- 1- تصميم الدكتور أبو القاسم سعد الله للشعر الجزائري.
- 2- نقد الدكتور سعد الله لشعر محمد العيد آل خليفة (2).

ويعود هذا التطور إلى الأحداث العميقة التي عرفتھا الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى. فقد ظهرت حركة الأمير خالد، وأصدر جريدة «الإقدام» كما تبلورت أفكار الحركة الإصلاحية التي كان يقود سراتھا الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو مثقف كبير له دراية عميقة بالثقافة العربية الكلاسيكية، خصوصا الدينية منها، كما أن له إلهام بكثير من جوانب ثقافة عهده الحديث، وظهرت أثناء هذه المرحلة كذلك التنظيمات السياسية والدينية.

ومن شعراء هذه المرحلة : محمد العيد آل خليفة، والأمين العمودي، وجلول بدوي، ومفدي زكريا.

وعرف الشعر الجزائري في المرحلة التي أطلق عليها الدكتور أبو القاسم سعد الله اسم «شعر الهدف» طرقا جديدة أكثر حداثة، وأرحب في مجال تنوع الموضوعات الشعرية، ومن أهم هذه الموضوعات التي غدت أثيرة لدى شعراء هذه المرحلة : «قضية فلسطين، وأحداث الشرق العربي، وغيرها من القضايا الإجتماعية المعاصرة». (8)

ومن أبرز شعراء هذه المرحلة : الربيع بوشامة، وعبد الكريم العشون، وأحمد الغوالي، وموسى الأحمد، وحسن حموتن، والأخضر السانحي (9).

إلا أن الشعر الجزائري أثناء الثورة التحريرية، بلغ أوج مسار تطوره سواء من حيث تنوع موضوعاته، أو من حيث تطور بنيته الفنية، فقد كادت الموضوعات الإصلاحية أن تختفي، واستبدلت بموضوعات جديدة مستلهمة من أعماق الثورة، ونضالات الرنسان الجزائري وعذاباته ضد المستعمر الفرنسي العاشم، فأصبح الشعر في هذه المرحلة أداة كفاح ممتازة، فبالإضافة إلى تعبيره عن بطولات الثوار الجزائريين، وأعمالهم الملحمية سعى الشعر الجزائري إلى إيصال القضية الوطنية إلى المحافل الرسمية الدولية، وذلك إما عن طريق الندوات، أو عن طريق نشر المجموعات الشعرية (10) أو قراءة الأشعار الوطنية الحماسية مثلما كان يفعل الشاعر مفدي زكريا حيث كان يلقي قصائده الثورية الهادفة من الإذاعات العربية، ولخص الدكتور أبو القاسم سعد الله مزايا الشعر الجزائري في مرحلة الحرب التحريرية (1954-1962م) في هذه الفقرة، يقول : «فيتميز -أي الشعر- بالروح الوطنية المشتعلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي، كما يتميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة، ويفتقر إلى الخيال الموحى والتأمل الخلاق». (11)

ويذكر من شعراء مرحلة الثورة هؤلاء الشعراء : أحمد الباتني، ومحمد الصالح باوية، وصالح خرفي، وأبو القاسم خمار، وعبد السلام حبيب، وعبد الرزاق الزناتي.

إننا مهما اختلفنا مع الدكتور أبي القاسم سعد الله حول أبعاد هذا التقسيم الذي ارتكز أساسا على تطور الأحداث التاريخية الكبرى وتأثيرها على مسار الواقع الجزائري الثقافي أو الإجتماعي، فإنه لا يسعنا إلا أن نكبر له هذا الجهد النقدي، ونعتقد أنه حقق غايته دون ريب حينما ظهر في سنوات

يمثل مأساة صاحبه، وليس حضارة أمته.. (4)، ومما يلفت انتباه الدارس لنقد الدكتور أبي القاسم سعد الله للتجربة الشعرية الجزائرية الحديثة، أنه من بين دراساته الأولى وضعه تصميم للشعر الجزائري الحديث، وتقسيمه إلى مراحل زمنية، ويبدو أن هذه المنهجية كان دافعها التأثير بالمنهج التاريخي الذي هيمن على معظم البحوث العربية أثناء المنتصف الأول للقرن الحالي، كما كان أيضا تلبية لاحتساس قوي بضرورة خدمة الثقافة الجزائرية، واستعادة الهوية الجزائرية ذات البعد الحضاري العربي الإسلامي التي عملت وبذلت الإدارة الإستعمارية وبعض عملائها كل ما في وسعها على طمسها ومحوها.

لقد بذل جهدا كبيرا لوضع مخطط أولي يسهل دراسة الشعر الجزائري الحديث، ويظهر أهم المراحل التاريخية التي تأثر بها النص الشعري الجزائري بدءا من أواخر القرن التاسع عشر إلى مرحلة الحرب التحريرية (1954-1962م).

وقد قسم هذا التصميم إلى المراحل التالية :

- 1- شعر المنابر من أواخر القرن الماضي إلى 1925 (5)
- 2- شعر الأجراس 1925-1936
- 3- شعر البناء 1936-1945.
- 4- شعر الهدف 1945-1954
- 5- شعر الثورة 1954. (6)

ومما لاحظته الدكتور أبو القاسم سعد الله على شعر هذه المرحلة الأولى أنه طغت عليه الموضوعات التالية : الحماسة، والفخر، والثناء، والوصف، والمدح، والغناء، وهي في رأيي لا تخرج عن سوار القصيدة العربية الكلاسيكية وبقي المتن الشعري الجزائري غير متجاوز لإطار القصيدة العربية التقليدية، بل ظل متماسكا بفضاءاتها وهواجسها، وفي ظننا أن السبب يرجع إلى أن المثقف الجزائري كان يخشى التجديد، ويحذر الأخذ بعوالم الثقافة الأدبية الحديثة، لأنه كان يخوض حرب الأصالة والهوية، وكان يرى أن التمسك بمجالات الشعر العربي القديم وفضاءاته دلالة على استمرار هويته، واختلافها الروحي عن الهوية الاستعمارية، ولعل هذا الموقف الصدامي هو ما جعل معظم شعر هذه المرحلة يغتنى بالمعجم الديني ويجسد الرؤية الإصلاحية، «ذلك أن أساسه الوعظ والإرشاد، وصبغته دينية، يكثر فيها لفظ الإسلام والإصلاح والسلف وما شاكلها، كما أن أهدافه إصلاحية ترمي إلى إثناء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادئ الخلقية». (7).

ويذكر من شعراء هذه المرحلة : عاشور الخنفي، وعبد الرحمن الديسي، وأبو اليقظان، والطيب العقبي، وأحمد الغزالي، ومحمد اللقاني، والجديد أحمد مكي، والسعيد الزاهري والهادي السنوسي.

أما في مرحلة «شعر الأجراس»، فقد شهد الشعر الجزائري «نغمة» جديدة رغم عدم ابتعادها كثيرا عن فضاءات ومجالات الحركة الإصلاحية.

عليّ حقا كذلك أن أرى بعض الباحثين يقدمون بعض من كتبوا بالفرنسية من الجزائريين على أنهم هم أدباء الجزائر (14) وقصاصوها، ومفكروها، وكنت آسف حقا أيضا حين أرى بعض المتخصصين في الآداب العربية من أساتذة الجامعة، والمعاهد العالية لا يتعرضون لأدب الجزائر القديم أو الحديث ولا يستشهدون لأدبائها وسعرائها حين يدرسون قضية عربية هامة شملت الوطن العربي جميعا في وقت ما بالأفراح أو الدموع... (15)

ولقد وزع الدكتور أبو القاسم سعد الله مادة بحثه عن محمد العيد آل خليفة على ثلاثة أقسام، وإثني عشر فصلا، بينما خصص القسم الثالث لنشر نماذج من شعره، بالإضافة إلى فهرس الكتب والمجلات والجرائد والجمعيات والأعلام والأماكن ومحتويات الكتاب. (16)

وجاء القسم الأول بعنوان «حياته» ودرس في فصوله الثلاثة الموضوعات التالية: «البيئة»، و«النشأة»، و«الثقافة»، و«آراؤه وتجاربه»، القسم الثاني فجاء بعنوان «شعره» ودرس في فصوله التسعة الموضوعات التالية: «بين عهديين» و«الشعر الاجتماعي»، و«الشعر السياسي» و«الشعر الذاتي» و«شعر الجامعات» و«الحياة العربية في شعره» و«خصائص شعره» و«منزلته».

ولأن المقام لا يتسع للكلام عن كل هذه الموضوعات فسأركز حديثي على الثامن الذي بحث فيه إشكالية خصائص شعر محمد العيد آل خليفة.

فقد عدد الباحث هذه الخصائص في القضايا التالية: «البساطة والسهولة»، و«وحدة الموضوع»، و«وحدة القافية»، و«الرمز»، و«الإقتباس»، و«المناسبة»، و«طول النفس»، و«التعميم»، و«البديع»، و«لزوم ما يلزم».

فعن خاصية «المناسبة» يرى أنها أبرز ميزة في شعره، فإن أكثر من ثلاثة أرباعه كان مرتبطا بمناسبة تاريخية، أو اجتماعية أو وطنية، فقد كانت المناسبة هي النبع الذي ورد منه، واستحتم فيه حيث عاش في الفترة الأولى مرتبطا بمنظمة معينة تؤسس وتنشئ وتجتمع وتحفل (17) ويرجع الدكتور أبو القاسم سعد الله ظاهرة وجود المطولات في ديوان محمد العيد إلى الأسباب التالية: «التكرار»، «الرغبة في البساطة»، و«الإيضاح»، و«عدم التزام وحدة الموضوع».

كما لاحظ أن قصائده نادرا ما تلتزم بوحدة الموضوع، أو وحدة الفكرة، وقد استثنى من هذه الملاحظة مقطوعاته الشعرية التي لا تتجاوز بضعة أبيات (18)، فهي عادة ما تركز على موضوع واحد وتعالج فكرة واحدة.

لقد أفضى تحليلنا للكتابات النقدية التي كتبها الدكتور أبو القاسم سعد الله عن الشعر الجزائري، وقضاياها الجمالية، والشكلية إلى الأمور التالية:

1- غلب المنهج التاريخي على جل كتابات الدكتور أبو القاسم سعد الله النقدية، وقد سهل له هذا المنهج كثيرا من السبل، فهو مرة يؤرخ لمراحل تطور الشعر الجزائري، وتأثير

الخمسينيات، كما لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن كتابته النقدية كانت تركز أساسا على اجتهاداته الذاتية، وتأملاته الخاصة، فلم تكن آنذاك متوفرة بين يديه دراسات أكاديمية للحركة الشعرية الجزائرية، كما لم تكن مصادر الشعر الجزائري متوفرة بين يديه مثلما هو الحال الآن.

ثانيا: نقده لشعر محمد العيد آل خليفة

أولى الدكتور أبو القاسم سعد الله شعر محمد العيد آل خليفة اهتماما كبيرا، وجهدا عظيما لم يوليها -حسب علمي- أي شاعر جزائري آخر، ويبين هذا الاهتمام كثيرا من الأمور:

1- أعجاب الدكتور أبو القاسم سعد الله بشعر محمد العيد آل خليفة، وكيف لا، وهو الذي جعل عنوان كتابه عنه بهذه الصيغة: «شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة» (12)

2- التقاؤها في كثير من القضايا الفكرية، من مثل دفاعها المستميت على عروبة الجزائر وإسلامها، وعداوتها الشديدة للاستعمار وأعوانه.

3- تشابه، ومقاربة مصادر ثقافتهما، فكل منهما ينحذب إلى الجنوب الجزائري المحافظ، وإلى منطقة واحدة هي منطقة وادي سوف الصحراوية.

وإذا كان الدكتور أبو القاسم سعد الله تمكن من أن يمتلك ثقافة أوس، وأعمق خصوصا في المعارف والمدارك الحديثة، وذلك بفضل الظروف التي أتاحتها له أسفاره وحالاته الكثيرة، خصوصا أثناء إقامته بالقاهرة، وبأمريكا للدراسة، فإن مصادر تكوينهما الأولى بكاد تكون واحدة.

4- فبقدر إعجاب الدكتور أبو القاسم سعد الله بشعر محمد العيد آل خليفة، وبسيرته الأدبية، ومثانة قصائده الشعرية، لم يخف الشاعر محمد العيد آل خليفة إعجابه بنشاط الدكتور العلمي، وبمجهوداته العميقة التي يبذلها في سبيل خدمة الأدب والثقافة الجزائريين، وخصوصا تعريف قراء المشرق العربي بشعره خاصة، وبالحركة الأدبية في الجزائر عموما، فقد عبر له عن شعوره نحو بقوله في إحدى رسائله إليه: «وأتمنى لجيلنا الصاعد أن يستنير بأضواءكم الكاشفة التي أقيمتوها على نهضة الجزائر وأدبها العربي المعاصر، وينتفعوا بموهبتكم النقدية الممتازة في أسلوبكم السلس الممتع، وملاحظتكم الدقيقة، وذاكرتكم اللاقطة وإحساسكم المرفه...» (13)

يعد كتاب «شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة» الكتاب النقدي الوحيد الذي خصصه الدكتور أبو القاسم لشاعر جزائري معاصر دون غيره من الشعراء رغم أنه تناول أشعار شعراء آخرين في أبحاثه ودراساته ومقالاته.

وقد شرح دوافع تركيزه على شخصية محمد العيد آل خليفة الأدبية في مقدمة الطبعة الأولى فقال: «وقد كان يؤلني حقا ما عليه المكتبة العربية من فقر في الكتب الأدبية والثقافية الشاملة عن الجزائر، حاضرها وماضيها، وكان يعز

باللغة الفرنسية.

4- د. أبو القاسم سعد الله، «الأدب الجزائري الحديث»،

تجارب في الأدب والرحلة، ص 31.

5- تجدر الملاحظة هنا أن سنة 1925م شهدت ميلاد

الصحف العربية التالية : «المنتقد» و«الشهاب» لصاحبهما الشيخ عبد الحميد بن باديس، وجريدة «الجزائر» للأديب الصحفي محمد السعيد الزاهري.

6- هذه التواريخ تؤكد ما ذهبنا إليه، من أن هذا المخطط

بني على أساس الأحداث التاريخية. وتأثيرها في الأدب الجزائري الحديث، وليس على أساس نظرية تطور الأجناس الأدبية.

7- د. أبو القاسم سعد الله، «تصميم للشعر الجزائري الحديث»، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، بيروت : دار الآداب، ط 2، عام 1977م، ص 35-37.

8- المصدر السابق ص 43.

9- المصدر نفسه.

10- م.ن، ص 47

11- م.ن.

12- د. أبو القاسم سعد الله، «شاعر الجزائر محمد العيد

آل خليفة»، الدار العربية للكتاب المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 3، 1974م.

13- محمد العيد آل خليفة، رسالة منه إلى د. أبو

القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ص 9

14- لعله يقصد كتاب الدكتور إبراهيم الكيلاني الذي صدر عن دار المعارف، بمصر تحت هذا العنوان : «أدباء من الجزائر».

15- د. أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد

آل خليفة، ص 16.

16- بلغت صفحات هذه الطبعة، والمعتمدة هنا 311

صفحة.

17- د. أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد

آل خليفة، ص 218.

18- المصدر السابق، ص 222.

الأحداث السياسية على بنيته واتجاهاته. وطورا يحلل ويبحث في أسباب طغيان وهيمنة قضايا فكرية أو جمالية في تجربة شعرية ما، وذلك مثلما فعل في دراسته عن محمد العيد آل خليفة.

2- هيمنة الرؤية التاريخية على كتابات الدكتور أبو

القاسم سعد الله، ويمكننا أن نميز بين مرحلتين تطورت خلالهما تجربة الدكتور أبو القاسم سعد الله الفكرية.

*- المرحلة الأولى، وتبدأ من عام 1947م، وقد هيمن في

هذه المرحلة الخطاب الإبداعي بكل أنواعه على إنتاج الدكتور سعد الله، فكتب القصة، والقصيدة، والمقالة النقدية، والدراسة الأدبية، كما ركز جهوده في هذه المرحلة التي تمتد إلى عام 1960م على تعريف المشاركة بواقع الأدب والثقافة في الجزائر.

*- وأما المرحلة الثانية، فتبدأ من عام 1960م إلى 1992م،

وطبعت هذه المرحلة سيرة الدكتور أبو القاسم سعد الله بغلبة الخطاب التاريخي وانحصر الإنتاج الإبداعي، إذ كاد يتفرغ لتأريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ولكن لم يمنعه هذا التفرغ أن يستلغ بعض أوقاته، ويكتب عن تاريخ الجزائر الثقافي (18) ولكن من منظور الباحث المؤرخ دائما.

3- تتميز كتاباته النقدية، بالدقة المتناهية، خصوصا

أبعادها التاريخية، فهو لا يكاد يذكر معلومة، أو فكرة ما إلا وأعقبها بذكر المصدر أو المرجع الذي استقاها منه، وقد نتج عن هذه الصرامة في عملية التوثيق كثرة الاستشهادات، والهوامش والفهارس، وذكر التواريخ، والأعلام.... إلخ.

وأخيرا فإن الباحث لا يمكنه إلا أن يقر بأن الدكتور أبو

القاسم سعد الله يعد من أبرز مثقفي الجزائر الذين دافعوا باستبسال ومرابضة عن بعدها الحضاري العربي الإسلامي، وهو من الأقلام الجريئة، الوطنية، النزيهة، الواثقة، المكدة، الدؤوبة، المشيدة، المدافعة على القيم الوطنية النبيلة. فكل هذا استحق هذا التكريم العربي اللطيف.

الإحالات

1- د. أبو القاسم سعد الله، «الثورة الجزائرية في مجلة

الآداب» و«الملاحق»، تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983م، ص 11-24، 309-316.

2- ولد الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة في عام

1904م بمدينة عين البيضاء، وتوفي سنة 1979م، وهو يعد شاعر الحركة الإصلاحية في الجزائر دون منازع، له ديوان شعر صدر عن مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر سنة 1979م.

3- آخر هذه النقاشات ما نقلته صحيفة «الشعب» خلال

الشهور الأخيرة من جدل ثقافي صدامي بين الدكتور عثمان سعدي، والأستاذ مصطفى الأشرف، وكذلك ما نشرته الصحف الجزائرية من جدل ونقاش ساخن بين الروائي الجزائري طاهر وطار، وبين بعض الأدباء والنقاد الجزائريين ممن يعبرون

*- عضو عامل في اتحاد الكتاب الجزائريين، وأمين فرع

عناية الجهوي.